الفصل الأول

المهدي بن تومرت وعبدالمؤمن

ذلك الداعية المهدي محمد بن عبدالله بن تومرت المصمودي، كان واسع الثقافة، فقيهاً، فإذا امتلأت جعبته من العلم مضى كالنحل يتمثل ما جمعه من زاد ليفرزه سائلاً عذباً، أوتي الفصاحة، وخرج من بين البدو «والبداوة مهد الفصاحة»، واستطاع أن يستغل بنجاح قصة المهدي المنتظر ليكوِّن دولة لا يعصيه فيها عاصٍ.

ظهر ابن تومرت محمد في هضاب المغرب الأقصى، بين قبائل يتفشى فيها الجهل، لقد ولد سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) في بلاد السوس الأدنى جنوبي مراكش في قبيلة هرغة، وكانت أمه حين يسألها عنه سائل تقول: يك تومرت -أي صار فرخاً، فغلب عليه اللقب-.

ولما رحل في طلب العلم، ولقي الغزالي في بغداد أخذته الحماسة إلى نصرة دين الله.

وفي سنة ٥١٦هـ بدأ المهدي العمل ليدخل المدن والبلاد، وفي سنة ٥٢٤هـ أرسل صفيه عبدالمؤمن على رأس جيشه إلى حرب المرابطين قرب مراكش فهزمهم هزيمة نكراء، وعاد عبدالمؤمن إلى تنملل ظافراً ليفاجأ بموت أستاذه المهدي، وليتولى أمور الدولة.

لم تمض سنوات إلا وأصبحت دولة الموحدين أعظم دول المغرب، فقد سجلت انتصارات على أعدائها. وعلى آل حماد في المغرب الأوسط، وقد كان آل حماد فرعاً من دولة آل زيري بن مناد الصنهاجي، وقد استمرت دولتهم قرناً ونصف القرن، وفي سنة ٥٤٧هـ، انتزع الموحدون قلعتهم من يد يحيى الصنهاجي آخر ملوك بني حماد، فسقطت الدولة.

ولقد هاب النصارى عبدالمؤمن بن علي ودولة الموحدين، فأدوا لهم الجزية صاغرين، وكان الموحدون يملكون الأراضي التي تقع بالأندلس جميعها.

نشط عبدالمؤمن إلى إلغاء النظم العسكرية التي فرضها المرابطون، وأطلق الحرية للشعب في العلم والمعرفة، فلم يحرق كتباً للفلاسفة أو العلماء، وأنشأ مدرسة في مراكش ليتخرج فيها رجال الحكومة وقادة الجيش، ومن ضمن برامج المدرسة تحفيظ القرآن ودراسة رسائل المهدي.

وكان عبدالمؤمن يمتحن الطلاب بنفسه ويرصد الجوائز للنابغين منهم.

وكان من هؤلاء الحفّاظ والطلاب أولاده الثلاثة عشر. واختار عبدالمؤمن من الحفاظ قضاته وفقهاءه وعلماءه وولاته.

ولم يلبث ذلك الحاكم أن دعا الولاة وشيوخ القبائل إلى اجتماع سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥١م، وأعلن فيه ابنه محمداً ولياً للعهد، وهو أكبر أولاده. كما تم في الاجتماع نفسه تعيين بقية أولاده حكاماً للولايات.

ونشط عبدالمؤمن إلى تنظيم شؤون الحرب والجهاد، وحين أفلح في القضاء على نفوذ النورمانديين وأجلاهم عن الأراضي التي استولوا عليها في إفريقية في سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، سارع إلى متابعة الغزو في شمال الأندلس.

انطلق بالقوات الموحدية إلى وهران لمحاربة النصارى الأسبان، وهناك تعرض لمؤامرة دبرت لاغتياله وهو نائم في خيمته، لكنه نجا وقضى على المتآمرين.

عبر عبدالمؤمن بجيوشه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق بعد سنة، وأنشأ حصناً عظيماً منيعاً، وسماه جبل الفتح، وأقام هناك شهرين، وافتتح حصناً في بطليوس، واشتبك مع قوات ألفونسو ملك طليطلة في موقعة رهيبة، وتم له الظفر واستولى على بطليوس وباجة وحصن الفقر، ثم عاد إلى مراكش.

ثم التقى جيشا الموحدين وملك الناڤار قرب غرناطة، فأحرز الموحدون نصراً كبيراً سنة ٥٥٧هـ، واستولوا على غرناطة.

لبى عبدالمؤمن نداء ربه بعد مرض شديد في العاشر من جمادى الآخرة ٥٥٨هـ، الخامس عشر من آذار ١٦٦٣م، وكان قد اختار لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف بدلاً من محمد.

وانتهت بذلك مسيرة رجل عظيم.

لقد تميز ذلك القائد بالشجاعة والعزم وبعد النظر والدهاء، وكان جل غرامه خوض المعارك والتخطيط للمواقع.

ترك عبدالمؤمن مملكة واسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى قرب حدود مصر.

obeikandl.com